محمد والمرأة

نشرت «الاحرار» خطاباً القاه العلامة المجدد الشيخ عبدالقادر المغربي في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية ببيروت رأينا ان نقتطف منه شيئاً لفائدة قراء الحديث »

— ١ —

كان العرب بمقتضى طبيعة بلادهم ، وتركيب امزجتهم يرون في المرأة هناءهم ، وراحة نفوسهم ، فأحبوها وكادوا يعبدونها . كما انهم بمقتضى طبيعة اجتماعهم ونظام الغارات والسبي المتعارف بينهم ، كانوا يرون في المرأة سبباً لمذلتهم ، ولحوق العار بهم . فتشاءموا بها الى حد ان وأدوها .

فكان العرب بين جاذبين : جاذب من طبيعة اقليمهم وامزجتهم يجذبهم الى المرأة . وجاذب من نظام اجتماعهم وحروبهم يبعدهم عنها .

وقد ولد محمد (ص) في جزيرة العرب وأهلها على ما وصفنا من الحالتين : فأقر الحالة الاولى : حالة حب المرأة ، وباركها هاتفاً : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وقبح الحالة الثانية — حالة التشاؤم بالمرأة فرفع قدرها وارجعها الى عرش سيادتها ونادى قائلاً : « المرأة سيدة بيتها . المرأة راعية في بيت زوجها . وهي مسؤولة عن رعيتها » .

فالغرض من نبوة محمد (ص) إذن ليس توحيد الله فقط بل والتبشير بالمرأة والاحتفال بارجاعها الى عرش سيادتها . قال عمر بن الخطاب : « والله كنا في الجاهلية ما نعد النساء شيئاً ، حتى انزل الله فيهن ما انزل ، وقسم لهن ما قسم » .

* * *

ومن تتبع سيرة النبي (ص) في ادوار حياته ادرك الاسباب التي جعلت نفسه الشريفة مستعدة لقبول هذا الوحي النسائي .

مات أبوه ثم أمه وعمره بضع سنوات ، فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها « بركة » وتكنى « أم أيمن » . وقد عكفت هذه الفتاة على تربيته وخدمته حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره . فكان قرير العين بما كان يراه في حاضنته هذه من العطف والعناية . وشعر بأول وظيفة من وظائف المرأة في هذا الوجود : المرأة من حيث هي امرأة ، حتى ولو كانت حبشية ومملوكة ولم تنتم الى عرق في العرب . او شرف في النسب .

ثم شاءت العناية الالهية ان تنقل محمداً (ص) الى العيش ، بقرب أشرف إمرأة في قريش ، فتزوج السيدة « خديجة بنت خويلد » .

شيء جديد في حياة محمد : انتقل الى طور آخر من معرفة المرأة ، واختبار وظائفها . ولم يعد ذلك الشاب الذي تخدمه حاضنة متواضعة فيكرمها . بل الشاب الذي تحبه امرأة شريفة ويحبها . هو شاب في الخامسة والعشرين ، وهي كهلة في الاربعين . كأن العناية الالهية رأت انه مازال في شبابه محتاجاً الى عطف امرة ذات سن وتجربة وثروة فيسرت له الاقتران بخديجة .

مات زوجها الاول فخطبها اشراف قريش فامتنعت وفضلت الاستقلال بنفسها ، والعكوف على اعمال تجارتها . وكانت تبحث عن ثقة من الرجال تكل اليه اشغالها . فما لبثت أن اهتدت الى محمد (ص) . فلم تره أميناً على مالها فقط ، بل وعلى قلبها ايضاً ، فأودعته ذلك جميعه .

كل من رأى محمداً (ص) وسمع كلامه شعر بأنه سيكون له شأن في نهضة العرب ، وانقاذهم من جاهليتهم . ولم يكن هذا ليخفى على خديجة . فكانت تعتقد ان خطيبها سيكون من عظماء الرجال ، مربي الامم والاجيال ، فزادت ولوعاً به وحرصاً على محبته .

قال أنس : « كان النبي (ص) عند عمه أبي طالب . فاستأذنه في ان يتوجه الى خطيبته (خديجة) فأذن له ، وبعث في اثره جارية له تسمى (نبعة) وقال لها : انظري ما تقول خديجة لابن اخي محمد .

قالت نبعة : فرأيت عجباً : ماهو الا ان سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فأخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها . ثم قالت له : بأبي وأمي لا افعل هذا الشيء (الذى نهيتني عنه) ولكنني ارجو ان تكون انت النبي الذى سيبعث . فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وادع الاله الذى يبعثك أن يبعثك لي .

قالت نبعة : فاجابها محمـــد : (والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا انساه ابداً . وان يكن غيري فان الاله الذى تصنعين هذا لأجله لايضنيك أبداً) » .

* * *

لم يكن محمد ذا حظ من مال ونشب . ولم تكن اسباب رغـد العيش متوفرة لديه في ماضي حياته . وقد توفرت لديه الآن منذ تزوج من خديجة . فما هو صانع ؟

أيتخذ من مال زوجته ونعمتها وسيلةً الى اللهو والدعة والنعيم ؟

كلا ! وانما اتخذ محمد الشاب من مال زوجته وسيلة الى فراغ قلبه من هم العائلة . كما اتخذ من حبها وطاعتها له وسيلة الى التفرغ لعبادة خالقه ، والى القيام بالعمل العظيم الذى يشغل باله .

ها هو محمد قد اعتزل الناس ، والتجأ الى غار في جبل حرآء . يناجي ربه ، ويسـأله ان يهدي شعبه .. وها هي خديجة امرأته تشجعه وتبث الثقة

والصبر والثبات فى نفسـه . ها هي تهيئ له الزاد ليتقوت به فى اثناء عزلته الطويلة . ها هي مجذلية محمد فى سفح الجبل مشرئبة الى الغار الذى اعتزل فيه زوجها ، وقلبها مفعم بالرجاء والايمان والثقة بالمستقبل .

وهكذا نرى النبوة ولدت على يد المرأة « خديجة » بينما لم يشهد ولادتها احد من الرجال . لا أبو بكر ولا عمر ، ولم يسمع بذكرها علي ولا معاوية .

ثم ماتت خديجة . فشاء أبو بكر اكبر صحابة محمد (ص) ان يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته « عائشة » .

لم تكن عائشة زوجة فقط بل وتلميذة ايضاً .

وهذا هو الطور الثالث من اطوار محمد (ص) مع المرأة :

بركة الحبشية تسهر عليه فى طفولته . وخديجة الكبرى تحوطه وتشجعه فى شبيبته . وعائشة الصديقة تسره وتكون تلميذة له في كهولته .

اختبر محمد (ص) المرأة في جميع ادوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشاباً وكهلاً . وكان لها من التأثير في حياته ماجعله يرفع منزلتها ويعلن حريتها ، ويسوي بينها وبين الرجال .

ومن اعجب المصادفات ان ينعقد مجمع « ما كون » فى زمن محمد (ص) أي فى سنة (٥٨٦) للميلاد ويبحث فى : هل المرأة انسان ؟

ثم قرر انها انسان . لكنها انما خلقت لخدمة الرجل . ولم يكد يصدر قراره هذا في فرنسا حتى نقضه محمد (ص) فى الحجاز ورفع صوته قائلاً : « انما النساء شقائق الرجال » . بل قال للرجال : ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التي تحرصون عليها هى « تحت اقدام الامهات »

وكل امرأة أم . ان لم يكن بالفعل فبالقوة . ولم يقل احـد فى تكريم المرأة مثل هذا القول الذى قاله محمد (ص) .